

توظيف التّراث التّاريخي للثّورة الجزائريّة، رواية "دماء ودموع" لعبد الملك مرتاض أنموذجا.

Abdel Malek Mortada's n sing the Historical Heritage of the Algerian Revolution, -ovel "Blood and Tears" as a model.

* دهنون إبراهيم

* أحمد قيطون

تاريخ النشر: 2021 / 09 / 15	تاريخ القبول: 2021/04/22	تاريخ الإرسال: 2021/01/16
-----------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

يعتبر الاشتغال على التّراث التّاريخي أحد المسالك الّتي اتّبعها عبد الملك مرتاض في "دماء ودموع"، محاولا في توظيفه تجاوز الطّريقة التّقليدية والاعتماد السّطحيّ المباشر، لكنّ تجربته تتشابه مع آخرين، ويقوم التّحوض الفنيّ لهذه الرواية على التّناس التّاريخي، كما ارتبط هذا التّراث الجزائريّ بالفترة الاستعماريّة، ولذلك صنّفت هذه الرواية في الروايات التّاريخية المؤرّخة للثّورة الجزائريّة، ويعكس توظيف التّراث التّاريخيّ الجزائريّ واقع الجزائريين في صراعهم مع فرنسا، ورغم ما قيل عن الرواية فإنّ المحمود فيها: معماريتها النّاهضة على الكثير من النّصوص التّراثية التّاريخيّة وارتباط التراث التّاريخيّ بالهويّة العربيّة الإسلاميّة والبعد الوطنيّ الجزائريّ وأخيرا، أضفى هذا التّدخل المتمثّل في توظيف أنواع تراثية أخرى، وكذا تعدّد تقنيات التّوظيف طابعا فنيا وجماليّا عليها.

الكلمات المفتاحية: التّراث التّاريخي، التّناس التّاريخي، تقنيات التّوظيف، عبد الملك مرتاض، دماء ودموع.

المؤلف المرسل: ابراهيم دهنون dahnoun@cuniv-naama.dz

* المركز الجامعي صالحى أحمد - النعامة dahnoun@cuniv-naama.dz

* المركز الجامعي صالحى أحمد - النعامة ، guitoun@yahoo.com

Abstract:

Working on the historical heritage is one of the paths that Abdel Malek Murtadha followed in "blood and tears", trying to employ it to bypass the traditional method and direct superficial dependence. Therefore, this novel was classified in the historical novels that dated the Algerian revolution, and the use of the Algerian historical heritage reflects the reality of the Algerians in their conflict with France, and despite what has been said about the novel, what is praiseworthy in it is: Its architecture is based on many Islamic historical texts and the Algerian historical heritage. Finally, this overlap of employing other heritage types, as well as the multiplicity of employment techniques, gave it an artistic and aesthetic character.

Key words: Historical heritage, historical intertextuality, recruitment techniques, Abd al-Malik Murtad, blood and tears.

*** **

مقدمة:

تميّزت الرواية الجزائرية منذ نشأتها في النصف الأول من القرن العشرين بتوجهات لغوية وجمالية متعددة، تسعى للإجابة عن تطلّعات الإنسان الجزائري وهو جسد التي كانت تعتريه خصوصا إبان مرحلة الاستعمار الفرنسي، حين كان ينشد الحرية، والأمر نفسه سينطبق بعد الاستقلال، وفي كلتا المرحلتين التاريخيتين ظهرت أقلام جزائرية تشترك جميعها في محاولة استثمار التراث شكلا ومضمونا بأشكاله وأنواعه المختلفة من تراث تاريخي وأدبي وديني وشعبي، فيه الحكايات والقصص والخرافات والأساطير وأساليب السير والمقامات والرسائل وغيرها، هذه الأشكال على اختلافها عكست بالضرورة الهوية العربية الجزائرية والقيم والمبادئ الوطنية وعلى كل حال، فقد كشفت الساحة النقدية الأدبية عن أسماء كثيرة حلّقت في جوّ الرواية الجزائرية نذكر منهم: مولود فرعون ومحمد ديب وكتاب ياسين ومالك حداد والطاهر وطار ورشيد بوجدره وواسيني الأعرج وعبد الحميد ابن هندوقة وعبد المالك مرتاض* والحبيب السائح وأحلام مستغانمي وغيرهم....، سواء منهم من يكتب بالعربية أو بالفرنسية لظروف ثقافية تاريخية، وأما عن معالم الكتابة باللغة العربية فقد، «بدأت معالم الكتابة الروائية باللغة العربية في الجزائر تتضح في فترة

السبعينات من مثل روايات: "ريح الجنوب"، "بان الصبح" لعبد الحميد بن هندوقة، "اللاز" و"الزلزال" للطاهر وطار "طيور في الظهيرة" لمزاق بقطاش، "ما تبقى من سيرة لخضر حمروش" لواسيني الأعرج، "نار ونور"، و"دماء ودموع" * لعبد الملك مرتاض..¹ ولذلك فلم يكن التأريخ للثورة الجزائرية بوقائعها وأحداثها على عاتق المؤرخين فحسب، بل رافقهم في هذه المهمة النبيلة الشقيقة والممتعة الروائيون أيضا، إذ أخذوا على عاتقهم هذا الأمر، فانبروا يدونون وقائعها ويسردون أحداثها الفاصلة مستغلين طاقاتهم الفنية، ليوظفوا تراثها التاريخي بأهم الشخصيات التي ساهمت في صنعه، مستخدمين كافة التقنيات والأشكال المتاحة آنذاك، والسبب في ذلك يعود لكون الأدب وفيما للتأريخ، وتعتبر الرواية من أبرز الأجناس الأدبية التي سارت معه جنبا إلى جنب ورافقته في رحلته، وقد وقع اختيارنا على الروائي مرتاض من خلال "دماء ودموع"، لأسباب كثيرة، وباعتبار عبد الملك مرتاض من أفضل الكتاب الذين مثلوا تيارات القصة الجزائرية الحديثة بعد السبعينات، «فروايتا "نار ونور" و"دماء ودموع" لمرتاض نموذج للتيار التقليدي الذي تجاوزته القصة العربية منذ فترة طويلة..»²، لذلك عزف التقاد عن دراستهما وخصوصا "دماء ودموع"، إلا بعض الإشارات النقدية الخاطفة التي تحدثت عن قيمتها النقدية بوجه عام ممن يهتمون بأعماله ك"يوسف وغليسي" في "عاشق الضاد" مؤخرا أوحى من سبقوه مثلا لا حصرا، لكن الغالبية منهم رأوا فيها مثلا للعمل الروائي الغير الموفق، علاوة على اعتراف صاحبها بنفسه بإخفاقها، ولم نعثر على أحد تطرق إلى دراسة موضوع التراث التاريخي على أهميته وقيمه الفنية فيها والذي يمثل فيها النسبة الكبيرة من التوظيف، بالنظر إلى خلفيتها التاريخية، لهذه الأسباب والمحفزات وغيرها كانت الرغبة تدفعنا في محاولة منا لاستنطاق هذه المدونة، واستكناه أهم العناصر والأمثلة التي شكّلت هذا التراث التاريخي ونابت في الحديث باسمه.

إنّ هذه الورقة البحثية كانت تحاول في مجملها الكشف عن طريقة تفاعل مرتاض مع التأريخ الجزائري الحديث وبالأخص مرحلة (فترة) الوجود الاستعماري، سواء بالكتابة

السردية المباشرة له أو التوظيف الفني المدروس لهذا التاريخ ، وذلك في إطار مسائلته للتراث الجزائري الموعول في الماضي ومحكمة الزامن استشرافا منه للمستقبل المشرق، من خلال الإجابة على بعض إشكاليات هذه الدراسة من قبيل:

- ما الأهداف المبتغاة من توظيف مرتاض للتراث التاريخي أصلا؟ هل هو مجرد إحياء لهذا التراث والمحافظة عليه ؟.

- هل كان توظيف هذا الشكل التراثي لصالح العمل الروائي (الجانب الجمالي)؟

- ما وجه العلاقة المحتملة بين التراث التاريخي والتراث العربي الإسلامي عموما ؟.

- ما مدى توفيق مرتاض في تجربته الفنية الروائية "دماء ودموع" ؟.

وإضافة إلى هذه الإشكاليات اعترضت طريقنا أسئلة أخرى في خضم البحث بذلنا جهدنا في محاولة لتقصيها والإجابة عليها.

1. مفهوم التوظيف:

"توظيف التراث" من المصطلحات الجديدة الحديثة ، وهو ليس سوى «الاستفادة من الخامات التراثية في الأعمال الأدبية وشحنها برؤى فكرية جديدة لم تكن موجودة في نصوصها الأصلية الغفل، و المتح من أشكالها فنيا وجماليا»³ ، ويراد به من ناحية أخرى استلهم الأديب من التراث ما يناسب أفكاره فكره وظروفه أو ظروف مجتمعه ويضمّنها داخل النص الأدبي، وتنوّع طرق هذه الاستفادة بين تقنيات المحاكاة والاستدعاء والاستلهم التي تعني التعبير عن التراث، أما التوظيف فيعني «التعبير به حيث ينصبغ الملمح التراثي بملامح جديدة - حسب رسالة المبدع و مقصديته - متراصلاً مع شجونه وقضاياه، محققاً بذلك هدفاً مزدوجاً، فهو يثري المعطيات التراثية التي استعارها فيصبح النصّ تراثياً معاصراً في الوقت نفسه»⁴ ، بحيث لا يتمثل المعطى التراثي فيه كما هو بل يتراءى بإيحاء، بوصفه رمزاً كلياً يوحد بين التجربتين، ويعبّر بفاعلية عن الواقع المعاصر،... فمرحلة توظيف التراث مرحلة تتجاوز أنماط إحيائه واستلهامه والتعبير عنه، إلى التعامل

معه فنياً»⁵، حيث يستوعب المبدع الدلالة الكلية للموروث، فيستثمرها ليوّظفها من خلال المزج بينه وبين الواقع.

وحقّ وإن اختلفت الطّرق في استثمار التراث من روائيٍّ لآخر، إلّا أنّ الملاحظ أنّ لتوظيفه التراث ثلاثة مستويات: مستوى التركيب المباشر للنّصّ أي كما هو، ومستوى الإشارة للنّصّ التراثي فقط، ومستوى امتصاص النّصّ التراثي وتشريحه في النّصّ الجديد.

2. التراث التاريخي في الرواية الجزائرية:

يعتبر توظيف التاريخ في الرواية الجزائرية من الظواهر الفنية الملفتة، وخاصة ما يعرف بتراث الحرب التحريرية، فلقد عرفت الرواية الجزائرية خلال مرحلة الستينيات والسبعينيات مساهمات تأصيلية جعلت من الثورة محركاً أساسياً لعملية الكتابة، «فمنذ الاستقلال أخذ التراث التاريخي القريب ممثلاً في حرب التحرير يحضر في سائر الكتابات الروائية بصور مختلفة تتلوّن وفق منظور الكاتب ومستوى نضجه وطبيعة ثقافته التاريخية»⁶.

لقد كانت الرواية الجزائرية في المرحلة الأولى التأسيسية لها مرتكزة على موضوع واحد هو الأهمّ من بين مواضيعها وهو الثورة، لينعكس في منتهى الصدق والأمانة معبراً عن معاناة الشعب الجزائري، ذلك أنّ التراث التاريخي المتعلّق بحرب التحرير هو الشّكل الأوّل الذي استثمره الروائيون في التّوظيف، ثمّ تلاه التراث العربيّ الإسلاميّ، ثمّ التراث السّرديّ، «لأنّ "النّسبة الكبيرة من الروايات التي وظّفت التراث ركّزت على التراث التاريخي ببعديه الوطني والعربيّ الإسلاميّ.."»⁷، ورغم هذا الاهتمام الذي لقيه التراث التاريخي منهم، يرى مخلوف عامر - بصفة عامّة - أنّه قد: «ظهر توظيف التراث في الرواية المكتوبة بالعربية في الجزائر بشكل جزئيّ محتشم، إذ يبدو أحياناً بمثابة لازمة مكرّرة، أو يحضر على سبيل الاستشهاد ولم يكن يوطّر المتن كلّها»⁸، لأنّ توظيف التاريخ في الرواية لا يعني التاريخ الموضوعي، ففي الرواية لا يكون التاريخ رصداً لأحداث تاريخية في ذاتها ولذاتها بقدر ما يكون لغايات فنية أخرى، وأبعاد إيديولوجية.

3. توظيف التراث التاريخي:

3. 1 - توظيف التراث التاريخي في "دماء ودموع": يقول يوسف وغليسي في كتابه "عاشق الضّاد": «...ويبدو أنّ الثّورة الجزائريّة المباركة كان لها فضل عظيم عليّ في بدايات كتاباتي الروائيّة، فقد كتبت عنها أربع روايات هي التي أعيد نشرها منذ حين بعنوان: "رباعية الدّم والنّار". فكانت تجربتي الأولى تستمدّ من أحداث تلك الثّورة المجيدة وأيامها»⁹. وهذا ما جاء على لسان مرتاض معترفا بصراحة بالدّور الذي لعبته أحداث الثّورة المباركة في بواكير أعماله الروائيّة، هذا الأثر والانعكاس كان متبادلا ليظهر جليا في أوّل عمل روائيّ من الرباعية المذكورة، إذ عبّرت الرواية الجزائريّة عن روح الثّورة وعظمة النّضال، فاجتهد الكتاب وسعوا إلى تقديم هذه الصّورة ضمن نصوصهم وكانت رواية "دماء ودموع" سنة 1963م، من أوّل الأعمال التي جسّدت أحداث الثّورة، ولم تكن هذه الأعمال تولي عناية كبيرة لتفاعلات القراء نظرا لأسباب ثقافيّة وتاريخيّة، فحسب يوسف وغليسي فإنّ مرتاض «..في بداياته الأولى (دماء ودموع، نار ونور) كان يكتب للقاريء التّقليدي البسيط البريء الذي لا عهد له بالمستجدّات السّرديّة الحديثة....»¹⁰، كما امتاز شكل الكتابة الروائيّة عنده هو أيضا بضعف التّقنية في محاولاته الأولى كما في "دماء ودموع" و"نار ونور".

إنّ عبد الملك مرتاض كان هادفا من وراء ذلك إلى إحياء تاريخ الجزائر وتدوينه فنّيّا في قالب سرديّ روائيّ توثيقا للمنطق ووصلا للماضي بالحاضر، واستشرافا منه لمستقبل الجزائر، ترسيخا لفكرة الثّورة في ذاكرة الأجيال، وزرعا لقيم الهوية من عروبة ووطنية وتواصلا مع الذاكرة الجماعية للشّعب الجزائريّ، أمّا عن سيطرة الرّؤية التاريخية في "دماء ودموع" فتعود لأسباب كثيرة أهمّها: معاشته لفترة الثّورة التّحريرية بواقعها المرير المرّ، إضافة إلى طبيعة ثقافته المتشبّعة بالأصالة والعروبة، يهدف بتوظيفه للتّراث التاريخيّ إلى تقريب الخلف من الجزائريين من واقعهم التاريخيّ العربيّ الجزائريّ، وقد انعكست هذه الرّؤية في روايته.

2.3- النصّ التاريخي: يرى سليم بنقّة في حديثه عن نوع من أنواع التّناس الروائيّ وهو ما يعرف بـ"التّناس التاريخي" أنّه : « يتمّ استحضار بعض المواقف التاريخية في مواقع من الروايات، وذلك تبعاً لمنطق الحدث وضرورة المعنى»¹¹، ويضرب مثلاً لذلك ببعض التّناسّات التاريخية في "الحريق" عندما ذكر صاحبها مدينة المنصورة في حديث "كومندار".. مشيراً إلى قلعة المنصورة التي بناها السلطان أبو يعقوب المريّنيّ سنة 698 هـ.. ولتوظيف التاريخ في الرواية الجزائرية طريقتين: توظيف مباشر، يعتمد على الذاكرة و المجادلة في نقل الوقائع التاريخية، والتّوظيف الرّمزي الذي يستلهم فيه الكاتب التاريخ للمء وترميم وتفسير فراغات سكت التاريخ عن ذكرها، من خلال المزج بين الواقع - التاريخ والمتخيّل الجمالي. ويرى مخلوف عامر أنّ «..النصّ التاريخي يتمّ إدخاله في الرواية إمّا بشكل خارجي لا يتجاوز الافتتاحيّة أو المقدّمة أو الأجزاء أو الأقسام أو الهوامش، وإمّا يدرج في المتن. وفي الحالة الأخيرة قد يحافظ الكاتب على النصّ المنقول بحرفيته وإحالاته أو يندسّ في النصّ بشكل غير مباشر إلى حدّ أنّه يصعب على القارئ اكتشافه..»¹²، فهو يذكر مجموعة من التّقنيات لتوظيف النصّ التاريخي، سواء على مستوى الشّكل أو على مستوى المتن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة يصعب الظّفر بها من لدن القارئ. وإذا كان لتوظيف التراث التاريخي أشكال وتقنيات مختلفة، فما هي أبرز الأشكال والتقنيات التي استعان بها "مرتاض" في رواية دماء ودموع؟.

4. أشكال توظيف التراث التاريخي وتقنياته في دماء ودموع:

1.4- الشّخصية التاريخيّة: إنّ أشكال توظيف التراث التاريخي وتقنياته كثيرة منها الشّخصيّة التاريخيّة، وقد ذكر مخلوف عامر ما لعبته شخصيّة "الزّيني بركات" من أدوار وما تمثّله داخل السّرد الروائيّ في فضح سلبيات المجتمع من خلال ثنائيات متناقضة المعاني والمفاهيم، على عكس ما تطمره كتب التاريخ يقول مخلوف عامر في هذا: «إذا كانت الشّخصية التاريخية لا تحيل إلا على ذاتها، فإنّ شخصيّة "الزّيني بركات" تختزل من خلال تصرّفاتهما وعلاقاتها كلّ النّماذج البشريّة التي تمارس التسلّط ضد فئات الشعب وإذا كانت

كتب التاريخ قد سكتت عن توضيح طبيعة العلاقة بين "الزيني بركات" وعامة الناس، فإنَّ السرد الزوائي سعى جاهدا لتوضيح هذه العلاقة...»¹³.

2.4- أشكال ظهور الشَّخصية التاريخية وطرق تقديمها(عرضها): وليس توظيف الشخصية التراثية مثلا سوى استخدامها في النصَّ الزوائي لتحمل بعدا من أبعاد تجربته المعاصرة، فيعبّر بها ومن خلالها، لتصبح أداة تعبير ورمز في آن واحد تعكس رؤياه للواقع الذي يحياه، إذ لم يكتف "محمد رياض وتار" في إطار حديثه عن توظيف الشخصية التاريخية بأن حدّد أشكال ظهورها وحصرها في ثلاثة أشكال، بل إنّه وقف عند أشكال تقديمها الثلاثة هي الأخرى أيضا لها يقول: «تحدّثنا عن توظيف الشخصية التاريخية ووقفنا عند أشكال ظهورها وهي الاستدعاء بالاسم والاستدعاء بالقول والاستدعاء بالفعل. ووقفنا أيضا عند أشكال تقديم الشخصية التاريخية ولأحظنا وجود ثلاثة أشكال هي: استخدام ضمير المتكلم واستخدام ضمير الغائب واستخدام ضمير المخاطب»¹⁴. وتلعب الضمائر الثلاث المختلفة) ضمير المتكلم المخاطب والغائب) أدوارا متميزة تختلف باختلاف نوع الضمير المستخدم، يقول "مخلوف عامر" - متحدّثا بلسان محمد رياض وتار - عن تقنية استخدام وتوظيف هذه الضمائر الثلاثة ودورها في المتن الزوائي على مستوى التوظيف: «وفي نظره أنّ ضمير المتكلم يقرب بين الماضي والحاضر، وضمير المخاطب يوضّح ما تجهله الشخصية التاريخية وضمير الغائب يجعل الراوي يؤدّي دور المؤنّخ»¹⁵.

أ. ضمير المتكلم: ولا يقف دور هذا الضمير عند حدود التقريب بين الماضي والحاضر، بل له أدوار أخرى ف«إذا كان ضمير المتكلم يزيل الحدود بين الأزمنة ليجعلها زمنا واحدا ممتددا، فإنّه أيضا يحمل القارئ على الاندماج في النصّ، لأنه كان قبل ذلك مطية الكاتب نفسه على الاندماج في الشخصية التي يوظّفها»¹⁶. إنّه يجعل القارئ يتفاعل مع النصّ، ويساهم في اندماج الكاتب نفسه مع شخصيته الموظّفة.

ب. ضمير المخاطب: ولهذا الضمير أثر البارز على مستوى الشخصية التاريخية من حيث إعلامها أو تذكيرها وتوعيتها بالتاريخ ودروسه، لذلك يقول عنه مخلوف عامر: «فأما

ضمير المخاطب فلا يتوقف دوره عند توظيف ما تجهله الشخصية التاريخية، لأنّ هذا الضمير قد يؤدي وظيفة المتكلم وقد يأتي خطابه للشخصية لأنّها تجهل بعض الأمور، بل من باب المراجعة والتذكير، وبهدف حمل الشخصية على وعي الدرس التاريخي والاعتبار به وتتضمن هذه العملية في الوقت نفسه دعوة للقارئ للقيام بالعملية الذهنية ذاتها¹⁷، ففي نفس الوقت فإنّ هذه الوظيفة الموكلة بهذا الضمير، ستطبق تماما على القارئ كعملية ذهنية ليقوم بها، فيسترجع هو الآخر ويتذكر ويحفظ الدرس التاريخي.

ج. ضمير الغائب: وهو الذي يأخذ مكان الراوي فينوب عنه ليقوم بدور المؤرخ وعمله بصفة مباشرة.

5. الشخصية التاريخية في رواية "دماء ودموع": إنّ رواية "دماء ودموع" لصاحبها مرتاض، وظفت الكثير من أسماء الشخصيات التاريخية من الأعلام المشهورين، من الذين عرفوا بأعمالهم التاريخية (السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية)، وشكل المقاومة التي خاضوها، وهي تحيلنا بطريقة أو بأخرى، إلى تراجع هذه الأعلام، والمؤلفات التاريخية للبحث عن حيثياتها وظروفها منها أصحاب المقاومات الشعبية نساء ورجالا من أمثال الأمير عبد القادر...، والقادة والزعماء والمجاهدين، ورجالات الحركة الوطنية وغيرهم، ذلك لأنّ الأمر التاريخي يصدّق عندما تتبّع ما تقترحه الرواية من وقائع تاريخية كثيرة عن المقاومات، المدارس والزوايا، المحارق الاستعمارية، والإدارة الفرنسية.. لمعرفة الحقيقي والمنتخّل في النصّ الروائي¹⁸، وتوظف الشخصية التاريخية من طرف الروائيين لأغراض مختلفة حسب رؤية الكاتب. ومن مظاهر هذا الشكل من التوظيف أيضا قول صاحبها، وأما قوله على لسان مربوح: «... أيها الشباب. أيها المجاهدون. يا معشر الجزائريين، أحفاد المقراني والأمير..»¹⁹.

فقد ذكر بعض الشخصيات التاريخية المؤثرة، في الأحداث المهمة من تاريخ الجزائر وسردها كما جاءت أي متعاقبة تاريخيا كما يلي: فمن الشخصيات التاريخية التي ذكرها فوظفها

مرتاض في "دماء ودموع": شخصية "الشيخ المقراني" و"الأمير عبد القادر"، وأما عن استحضار هذه الشخصية الأخيرة (الأمير عبد القادر) بالذات يقول سليم بّقة: «فكثيرا ما تستحضر شخصية "الأمير عبد القادر" كمرجعية تاريخية، وكشخصية وطنية محررة في سيرها نحو توحيد الوطن.»²⁰، والملاحظ استغلاله لهذا الشخصيات التراثية التاريخية الفذة التي تمثل الماضي المشرق المشرف للجزائر، وقد استدعاها بأسمائها ليربطها بهؤلاء الشباب المجاهدين الجزائريين الذين عبّر عنهم بالأحفاد قصد بثّ روح الحماس والافتداء، لأنهم يمثلون الحاضر في تحديهم للمستعمر الفرنسي، كما أنه استحضر شخصياته أيضا مستفيدا من الخطابة العربية القديمة من خلال أسلوب النداء فيها.

6- الأحداث التاريخية: وفي إطار استغلال المعلومات التاريخية، والتّصّرف في بعض أحداث التاريخ، فقد عبّر مخلوف عن حضور التّراث في الرواية العربية، من خلال بعض التقنيات التي يلجأ إليها الروائيون: «عمد بن سالم حميش في روايته "مجنون الحكم" إلى استغلال المادّة التاريخية... وأتبع سالم بن حميش (هكذا) في كتابة روايته التاريخية "مجنون الحكم" طريقة في بنائها تقوم على توظيف المفاصل الرئيسيّة للحادثة التاريخية من كتب التاريخ ومؤلفات المؤرخين وإضافة وحدات سردية جديدة يقتضيها التّخييل الذي يقوم عليه البناء الفنيّ للرواية. لقد استقى الكاتب مادّة فصل "السّلطانة ستّ الكلّ" من كتب المؤرخين ... ولكنّه لم يتقيّد بالمعلومات التاريخية بحذافيرها، بل أضاف إليها وحدات سردية جديدة متخيّلة..»²¹، إنّها تقنية فنية تقوم على التّصّرف في بعض الأحداث الجزئية، وإضافة وحدات سردية بما يخدم الجانب الروائي التّخييليّ المخالف للواقع التاريخيّ حسب قدرات الكاتب الإبداعية وأهدافه المتوخاة.

1.6- الأحداث التاريخية في دماء ودموع: من الأحداث التاريخية الهامة أحداث الثامن ماي ومجازره المعروفة (8 ماي 1945م)، وتاريخ اندلاع الثورة الجزائرية المظفرة (1 نوفمبر 1954م)، ومفاوضات إيفيان، وتاريخ (15 مارس 1962/5 جويلية 1962م) كما يلي:

اندلاع الثورة الجزائرية: وهو أول الأحداث التاريخية المهمة التي تطالعنا في صفحات المتن الروائي، ويظهر في قول ابتسام: «..وأي يوم أرفع شأننا في تاريخ الجزائر الحديث نحن فاتح نوفمبر؟»²²، وهذا في إطار التحضير لهذه المناسبة التي وصفها بالعظيمة، ومما تجدر الإشارة إليه أن مرتاض وظف هذه الذكرى توظيفا منفردا، فلم يقرنها بمناسبات تاريخية أخرى ثم إنه لم يحدد التاريخ تحديدا دقيقا بالأرقام كما يفعل المؤرخ، بل اكتفى بذكر لفظة (الفاتح) و(نوفمبر) دون ذكر للسنة، على التقيض مما سيفعله في مواطن أخرى

أ. مفاوضات إيفيان: (تقنية التكرار): واعتمد فيها كثيرا على تقنية التكرار، لأن بين التكرار و التراث علاقة تبادل المنفعة، فالتراث يتخذ لنفسه مجموعة طرق للحفاظ على استمراريته وبقائه أشهرها التكرار، لذلك فإن أهم آلية يشتغل عليها التراث هي التكرار في حياة عقول الناس وحياتهم ليغدوا عندهم شيئا مهما وراسخا لا ينتسى، والتكرار ظاهرة معروفة، يظهر في إعادة اللفظ أو المعنى أو هما معا، تأكيدا على أهمية المكرر وقيمتة التوضيحية والفنية الجمالية. لكنّه يكون ذا فائدة كلما تم ربط العنصر المكرر بالنص في مجمله، لأنّه يضفي على العبارة أو الجملة ترابطا وانسجاما.

ففي حديثه عن مفاوضات إيفيان التي ورد ذكرها وتكرارها في الرواية مرّات عديدة كما يلي: «..بعد أن كان كلّ جزائريّ ينتظر نتائج المفاوضات الجارية في مدينة إيفيان... وهذه مفاوضات "إيفيان" تشرف على الانتهاء»²³ ثمّ في قوله: «..والمفاوضات قائمة في "إيفيان". كان كلّ شيء قد انتهى»²⁴، وفي قوله: «...ولكن البوادر كلّها تدل على أنّ هذه المفاوضات قد تنتهي في هذا الشهر، شهر مارس، غالبا. »²⁵، فالمشترك في ذكر هذا الحدث التاريخي، هو ذكره للمكان وتركيزه عليه "مدينة إيفيان"، مقابل إهماله الجزئي للزمن وعدم تدقيق فيه، لأنّ الغالبية تعلم بوجود مرحلتين فيها (إيفيان الأولى والثانية) ليحيل القارئ الذي يجهل التاريخ إلى مؤلفاته، والتعبير عن نهايتها ونتائجها (تشرف على الانتهاء، قد انتهى، قد تنتهي، نتائج)، معبرا عن طموح الشعب الجزائري وأمله في الحرية.

كما اعتمد تكرار نفس المفردة في التّصوص التاريخيّة المختلفة (إيفيان، المفاوضات، انتهى..)، و تتمثّل أهمية التّكرار في كونه طريقة تعبيرية مهمّة تساهم في توضيح بعض أسرار النصّ الروائي، والكشف عن ثقافة الشّاعر وموقفه الفكريّ، وأخيرا فهو يعكس حالته العاطفيّة أيضا. وكما لاحظنا ظاهرة التّكرار في الحديث عن "مفاوضات إيفيان" في بعض أجزاء رواية "دماء ودموع"، ومن صوره: تكرار المفردة الواحدة في التّركيب أو الجملة، فقد وظّف مرتاض هذا الحدث معتمدا على تقنية (ظاهرة) التّكرار في روايته كونها خاصية من خصائص أسلوب كتابته الروائية، بالدّرجة الأولى، ولكن يبقى التّكرار عند الكاتب بأنواعه وصوره المختلفة التي رأيناها عنده دالّا على أهميّة هذا العنصر المكرّر، إضافة إلى صبغته الجماليّة.

وفي الحديث عن توظيف التّراث التّاريخي دائما من خلال وصف الأحداث، وذكر الوقائع التاريخيّة وتسجيلها من طرف الروائيّ الجزائريّ يقول إدريس بوديبة: « فقد استثمر كتّاب هذه المرحلة محوري الحرب والشّهداء فاقتربوا من وصف الأحداث وتسجيلها و تقديم الوقائع التاريخيّة بشكل متسارع جعلها تقترب من الإنشاء اللّغويّ في رصدها الكفاح المسلّح للشّعب الجزائريّ داخل إطار عاطفيّ ينمو مع نموّ الأحداث »²⁶.

ويلاحظ الأمر نفسه عند كاتبنا، فقد اكتفى بوصف الأحداث، وذكر الأحداث التاريخيّة وتسجيلها كما هي بطريقة مباشرة دون حذف أو زيادة شأنه شأن الروائيين الجزائريين، في رواياتهم الكلاسيكيّة التّأسيسيّة الأولى.

ج. معركة وادي أغرم: يقول مرتاض: «.. ولاسيما بعد قيام "معركة وادي أغرم" التي ذاق فيها العدو هزيمة شنعاء. وقد نكّل جنود العدو بالفلاحين والنّساء والأطفال تنكيلا... وقد أدّ الغضب بالعدوّ غلى قتل مناضل شجاع.. وإلى سوق كثير من النّساء والفلاحين الشّيوخ إلى محتشد "سوق الثّلاثاء". وقد ظلّت الطّيّارات تحلّق على هذه النّاحية أسابيع.. أمّا أنتم فقد كنتم اختفيتم في بعض مخابئ القرية... حيث التحق بكم معظم رجال الحركة.. فأضلّ العدو طريقه إليكم.. »²⁷.

لقد تمكن عبد الملك مرتاض فيما يربوا عن نصف الصفحة أن يكتب شيئا مما قد يوافق عليه المؤرخ ويطابق التاريخ، رغم أن بعض أبطالها من الشخصيات المتخيلة، في محاولة منه لنقل أجزاء من تفاصيل هذه المعركة "وادي أغرم" كما حدثت، مع التغيير بالحذف خصوصا ببت الأحداث وتجاوز المراحل، لأن تركيزه كان منصبا على بعض أحداث المعركة ونتائجها (هزيمة العدو الفرنسي وانتقامه من الضعفاء) فاختزل أحداث بداية المعركة وحيثياتها وربما لحظات مهمة منها..

د. المصطلحات التاريخية: وهي كثيرة، مما ورد في الأمثلة التي ذكرناها ومنها: العدو، الفلاح، نوفمبر، ماسينيسا، الأمير عبد القادر، مفاوضات إيفيان، الجزائر، وطني، الثورة، الشعب، الاستعمار... وسنضرب مثلا غيرها بمصطلحين آخرين هما (الحركي والمجاهد) كما في قوله: « قال الحركي هازنا:....قلت للحركي:.... »²⁸.

7. تقنيات توظيف التراث التاريخي:

1.7- تقنية (ظاهرة) المزج بين أشكال مختلفة من التراث التاريخي: وأحيانا ألفينا "مرتاض مزج بين توظيف الشخصيات التاريخية مثل: "ماسينيسا"، وشخصية "الأمير عبد القادر"، وبعض الأحداث المهمة من التاريخ الجزائري، منذ عهد "ماسينيسا" مروراً بزعيم المقاومة الشعبية الأمير عبد القادر فأحداث الثامن ماي وتاريخ اندلاع الثورة التحريرية، وذلك على لسان فلاح مخاطبا عتي مختار: «من عهد "ماسينيسا" إلى عهد الأمير عبد القادر، إلى زمن مجازر ثامن مايو، إلى يوم فتح نوفمبر العظيم 29»²⁹، فإذا ما استثنينا ظاهرة المزج بين شكلين من التراث ما بين (الشخصيات والأحداث)، فإنه توظيف يعتمد أساسا على الترتيب والحشد والتجميع، لكنه سطحي مباشر ليس فيه جديد، ويخلو من الفنية.

و الملاحظ هو تعلق التراث العربي والديني الإسلامي بالتراث التاريخي وارتباطهم جميعا، كما في قوله: « لأن شعوب المغرب العربي يوحدتها الجوار والدين..المشترك 30»³⁰، أو التعبير عموما عما يعكس هوية المواطن الجزائري ومبادئه ويمثلها، مثل قوله: «عربيتي

لغتي، وجزائري وطني، وعروبي، جنسي، وإسلامي ديني، فماذا يريد منّي الاستعمار ؟ ولم أقدم على إبعادي من أرضي ووطني؟»³¹.

2.7- تقنية (ظاهرة) الحشد والجمع: وكانت أطول عبارة وظّفها الكاتب في الحوار الذي دار بين "تابوت" و"عبي مختار" كالآتي: «... استغفر الله يا "عبي مختار"، ماذا تقول؟ أتمنّى على الثورة والشعب؟. أستغفر الله يا ولدي. لا حول ولا قوة إلا بالله. لساني زاع، فأخرج من الكلام ما كان يجب ألا يخرج. لا حول ولا قوة إلا بالله.. أستغفر الله العظيم.. لعن الله الشيطان الرجيم..»³²، فقد اعتذر في الأخير لتابوت معبرا عن ذلك معترفا بخطئه بزوغان لسانه لأنّه قال قبل هذا: «لم يبق لنا صبر. تعذبنا. كثيرا. أنا مثلا فقدت ولدين في الثورة.. كما فقدت أخي الوحيد. ضاق صدري يا أخي ضاق. مزقت الأوجاع نفسي... وتجبر الاستعمار..»³³، و لذلك فإنّ مقالته هذه تعكس لنا وجهها آخر عابسا من تاريخ الثورة الجزائرية التي فقد فيها الناس أهلهم من الأبناء والإخوة ليلقّهم الحزن وتطوّقهم الوحدة، ونلمس في هذا الإطار جانبا جماليا في التوظيف يتمثل خصوصا في حشد صيغ مختلفة من الدّعاء، ما بين استغفار وحوقلة ودعاء على الشيطان بلعنه من جهة كثرات ديني، ومن جهة أخرى نجد الكاتب مزج الدّين مع التاريخ ليعبر عن واقع الجزائريين وعن هويتهم الدينية. من خلال الشخصية التي اختارها.

ففي توظيفه للتراث ظاهرة مزجه لأشكال مختلفة من التراث في العبارة الواحدة. ومثال ذلك أيضا قوله على لسان إحدى شخصيات الرواية وهي "الأم يامنة": «أجابت الأم يامنة مرتاحة: الله لا يقتلنا حتّى نعيش أيّاما من عهد الاستقلال، ربّي يفرّج»³⁴. فقد جمع بين توظيف أشكال مختلفة من التراث الديني والتاريخي والأدبي الشعبي، ممثلا في الدّعاء بالعامية ابتداء وانتهاء "الله لا يقتلنا... ربّي يفرّج"، وذكره في وسط الجملة ل"عهد الاستقلال"، وهو تراث تاريخي استشرّف فيه الكاتب مستقبل الجزائر.

هذه التقنية التي اعتمدها، مرتكزا على العبارة الطويلة التي استغلّها لجمع أشكال مختلفة من التراث، ورغم كون ظاهرة الحشد في التراث دون توظيف واع من الشعراء والروائيين،

سبب من أسباب عزوف القراء العرب حسب النقاد، إلا أنها في رأينا. تدلّ على ثقافة الكاتب وموسوعيته، وقد أضفت صبغة جمالية، وإضافة إلى هذه التقنيات التي تمّ التوصل إليها من خلال دراستنا للرواية، والمواضيع الرئيسية، فقد هدتنا الحيلة البحثية إلى مواضيع تعدّ من باب التراث التاريخي، أطلقنا عليها "مواضيع تاريخية أخرى".

8- مواضيع تاريخية أخرى:

أ. الانضمام إلى صفوف جيش التحرير: وإضافة إلى بعض الأحداث التاريخية المهمة والشخصيات الفاعلة فيها، فهناك بعض المواضيع الأخرى الجانبية (الأقل أهمية) التي تطرق إليها الكاتب كرجبة بعض المواطنين في المشاركة في الثورة من خلال الانضمام إلى صفوف جبهة (جيش) التحرير، كما جاء على لسان شخصية "أحمد": «لقد كنت طلبت التجنّد في صيف سنة ستّ وخمسين، ورفضت الجبهة طلبي»³⁵.

ب. مشاركة المرأة في النضال: وكذا نضال وجهاد بعض الجزائريات، فعبد الملك مرتاض في نظر "واسيني الأعرج" يعدّ واحدا من أبرز اتجاهات التيار الرومنتيكي للرواية الجزائرية من الذين تبوّأ موضوع المرأة الجزائرية التي تركت بيتها متّجهة صوب الجبال لتكافح جنبا إلى جنب مع الرجل طلبا للحرية فهو: «...يجسّد هذه القضية على الصّعيد الفئّي.. هذه المرأة التي تبنت مثله في ذلك مثل الرجل، قضية الجزائر بكلّ أبعادها وعاشت تجربة الحرية. كما عاشت تجربة النضال المرّة. »³⁶، وهذا ما يثبت قول مرتاض على لسان المسبلة المناضلة زينب حين يقول:

«...ثمّ أخذت تهيّء الطّعام لجنود جيش التحرير في سعادة غمرت قلبها، وألهبت عواطفها، وجعلتها تدور في دارها مختالة، كأنّها أصبحت هي ذاتها بطلة عظيمة يعجب بها الناس. »³⁷، ولم يكتف مرتاض بمجرد التوظيف المباشر لشخصية زينب، بل حاول أن يلصق بها صفة العظمة والبطولة بمقارنتها، كما يفعل سائر الروائيين بشخصياتهم التاريخية، وإضافة إلى موضوع الانضمام إلى جيش التحرير، ودور المرأة وبطولتها.

ج. الخيانة (العمالة): وهناك أيضا ما يعرف بموضوع العمالة أو الخيانة وترتبط الخيانة العظمى للوطن من خلال ما عرف بشخصيات "الحركة"، وهم بعض عملاء فرنسا من الجزائريين ضعاف النفوس، وقد ورد ترديد هذا المصطلح التاريخي المتعلق بالثورة كثيرا، لكننا سنكتفي بقوله السارد: «ولم تجب المجاهد، وقلت لصوت الحرّي الذي خاطبك:.. اسكت أيها الخائن..»³⁸.

د. إجبارية الخدمة العسكرية ودور لزوايا: وفي مقابل هذه المعارك التاريخية والنضال والجهاد في سبيل الوطن وعلى النقيض تماما يذكر أحداثا تاريخية أخرى تدلّ على الواقع المزري الذي عاشه الشعب الجزائري منها إجبارية تأدية الخدمة العسكرية خدمة لمصالح فرنسا ليوظفها توظيفاً مباشراً، ففي معرض وصفه لشخصية (مربوح) استغلّ ذلك للإشارة إلى قضية تاريخية في قوله: «كان مربوح ابن فلاح، وقد تاح له أن يتعلّم اللغة العربية وبعض آدابها في بعض الزوايا النائية، بالإضافة إلى حفظه القرآن الكريم، فلما وجبت عليه الخدمة العسكرية الإجبارية أداها في الجيش الفرنسي في شيء من الرضا المشوب بالغموض...»³⁹. ويتعلّق الأمر بإجبارية الخدمة العسكرية تحت علم بلد أجنبيّ أوربيّ هو فرنسا عن طريق الإكراه، وكذا دور بعض الزوايا في الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، من خلال تعليم اللغة العربية وتحفيظ القرآن خاصة لأبناء الفلاحين والبسطاء الفقراء.. ويدلّ اعتماده على شخصية الفلاحين على ... كما أنّه يعبر عن وطنيّة الفلاحين الجزائريين آنذاك، وعموماً، فإنّ همّ عبد الملك مرتاض في رواية "دماء ودموع" بالدرجة الأولى لم يتجاوز التعبير عن بعض مواقفه في توظيفه للتاريخ استجابة لنداء للواجب الوطنيّ، من خلال التحريض على الثورة واستنهاض الهمم، والدعوة إلى تعزيز الهوية لأنّه كان يرى ذلك واجبا وطنياً وعربياً ودينياً تتطلّبه القومية العربية والديانة الإسلامية، وقد أبدى مرتاض نفسه رأيه فأصدر ما يشبه الحكم التقدي على روايته الأولى من رباعيته المعروفة، وكأنّه يعزّر آراء ومذاهب بعض النقاد بقوله: «وإنّ أول رواية كتبها، وإن لم أك، من الوجهة الفنية - وخصوصاً من الوجهة التقنية - فيها موقفاً، هي رواية "دماء ودموع" التي استعنت في كتاباتها

ببعض أحداث من سيرتي الذاتية..»⁴⁰، مبرّرا ذلك بقلّة التجربة، ومحدودية الخيال لصنع رواية كبيرة مكتملة الأركان، متعدّدة التقنيات الفنيّة آنذاك، أمّا نحن فكان لنا رأي قد يخالفه قليلا في تفاصيله، ويظهر هذا الرأي فيما أمكن تلخيصه.

الخاتمة:

يعتبر التعامل مع التراث التاريخي أحد المسالك الروائية التي اتبعتها عبد المالك مرتاض محاولا تجاوز الطريقة التقليدية في الاعتماد السطحي المباشر في توظيف التراث، لكن الملاحظ أنّ طرق التعامل معه والاشتغال عليه كوسيلة إلى التجريب الروائي والبحث عن الهوية تبدوا متشابهة مع آخرين، وبالجمله فقد خلصنا من خلال هذه الورقة البحثية للاستنتاجات والملاحظات التالية:

- يمكن تصنيف هذه الرواية، ضمن الروايات التاريخية التي تؤنّج للثورة الجزائرية.
- يقوم النهوض الفني روايات "دماء ودموع" على ظاهرة التناسل التراثي التاريخي.
- ارتباط التراث التاريخي الجزائري بالهوية التاريخية للوطن، والفترة الاستعمارية.
- يعكس توظيف التراث التاريخي واقع الجزائريين في صراعهم مع فرنسا.
- اهتمام مرتاض إلى تقنيات فنية مختلفة للتوظيف، كالتكرار والحشد والجمع والتداخل والترتيب..ومواضيع أخرى ذات صلة بالتراث التاريخي، كموضوع المرأة والعمالة وغيرها.
- الحضور الملحوظ والقوي لشخصية المرأة الجزائرية في التاريخ الثوري جزائري.
- لجوء مرتاض لألية التكرار في توظيفه للأحداث التاريخية،
- تعتبر رواية "دماء ودموع" من المحاولات والتجارب الناجحة في الكتابة الروائية الجزائرية لعدة أسباب أهمها:

- معماريتها التاهضة على زخم الكثير من النصوص التراثية التاريخية
- تعكس هذه الرواية ، الجوانب الثورية التي تعضد التاريخ وتقوي شهادته،

*** **

الهوامش:

1- يوسف وغليسي، عاشق الضاد، قراءات في كتاب العلامة عبد الملك مرتاض، دار جسر للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2018م، ص 492

توظيف التراث التاريخي للثورة الجزائرية، رواية "دماء ودموع"...

- 2- سهيل إدريس، في القصة الجزائرية الحديثة، مجلة الثقافة الجديدة، المجلد 2، ص 2.
- 3- الرشيد بوشعير، دراسات في المسرح العربي، دار الأهلالي، دمشق، 1997م، ص 45 - 46.
- 4- علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1، 1978م، ص 79.
- 5- نفسه، ص 64 وما بعدها.
- 6- مخلوف عامر، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الأدیب وهران، الطبعة الأولى، 2005م، ص 185.
- 7- المرجع نفسه، ص 185.
- 8- نفسه، ص 185.
- 9- يوسف وغليسي، عاشق الضاد، قراءات في كتاب العلامة عبد الملك مرتاض، دار جيسور للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2018م، ص 39.
- 10- نفسه، ص 442.
- 11- سليم بركة، الريف في الرواية الجزائرية، دراسة تحليلية مقارنة، منشورات الرياحين، وزارة الثقافة، (د ط)، 2009م، ص 350.
- 12- مخلوف عامر، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الأدیب وهران، الطبعة الأولى، 2005م، ص 18.
- 13- نفسه، ص 18، 17.
- 14- نفسه، ص 18.
- 15- نفسه، ص 18.
- 16- نفسه، ص 18.
- 17- نفسه، ص 18، 19.
- 18- وليد بوعديلة، أبعاد التوظيف التاريخي في الرواية الجزائرية، دراسة في نماذج مختارة، مجلة منتدى الأستاذ، العدد التاسع عشر، جانفي 2017م، جامعة 20 أوت 1955، سكيكدة الجزائر، ص 46.
- 19- عبد الملك مرتاض، رباعية الدّم والنّار "دماء ودموع"، دار البصائر للنشر والتوزيع، (د ط)، الجزائر.
- دماء ودموع ص 262
- 20- سليم بركة، الريف في الرواية الجزائرية، دراسة تحليلية مقارنة، منشورات الرياحين، وزارة الثقافة، (د ط)، 2009م، ص 350.
- 21- مخلوف عامر، توظيف التراث في الرواية الجزائرية، بحث في الرواية المكتوبة بالعربية، منشورات دار الأدیب وهران، الطبعة الأولى، 2005م، ص 18.
- 22- عبد الملك مرتاض، رباعية الدّم والنّار "دماء ودموع"، دار البصائر للنشر والتوزيع، (د ط)، الجزائر.
- دماء ودموع، ص 59
- 23- نفسه، ص 262، 263.
- 24- نفسه، ص 278.
- 25- نفسه، ص 270.

- 26- إدريس بوديبة، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007م، ص 2.
- 27- عبد الملك مرتاض، رباعية الدّم والنّار "دماء ودموع"، دار البصائر للنّشر والتّوزيع، (د ط)، الجزائر.
- ص 243 - 244.
- 27- نفسه، ص 32.
- 28- نفسه، ص 25.
- 29- نفسه، ص 154.
- 30- نفسه، ص 126.
- 31- نفسه، ص 250.
- 32- نفسه، ص 250.
- 33- نفسه، ص 257.
- 34- دماء ودموع، ص 197.
- 35- واسيني الأعرج، اتّجاهات الرواية العربيّة في الجزائر، بحث في الأصول التّاريخيّة والجماليّة للرواية الجزائريّة، المؤسسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر 1986، ص 64.
- 36- دماء ودموع ص 223.
- 37- دماء ودموع ص 223.
- 38- دماء ودموع ص 233.
- 39- دماء ودموع ص 259.
- 40- يوسف وغليسي، عاشق الضّاد، قراءات في كتاب العلامة عبد الملك مرتاض، دار جسر للنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، 2018م، ص 39 - 40.